مكانةُ إيران في المَدركِ الإستراتيجيّ الروسيّ

م.م. رؤى خليل سعيد خليل*
باحثة من العراق

* طالبة دكتوراه/ كليَّة العلوم السياسيَّة- جامعة النهرين

المُقدمــة

تُعدُّ روسيا الاتحاديةُ واحدةً من أهمّ القوى الدولية الأساسية على الساحة الدولية، فهي الوريث الشرعي لمقعد الإتحاد السوفيتي السابق في مجلس الأمن كما إنها لا زالت تمتلك ترسانةً هائلةً من القُدرات العسكرية التقليدية وغير التقليدية، وأسلحةً الدمار الشامل بكل أنواعها فضلاً عن امتلاكها بنيةً مؤسسيةً وعلمية تكنولوجية ضخمة لصناعة وتطوير أنواع شتى من السلاح الذي تحتاجه إيران و بالمقابل فإنّ إيران دولةٌ لها ثقلُها على المستوى الإقليمي وهي تمتلك المال والموارد الأولية كما إنها تسعى جاهدةً لتعزيز قدراتها العسكرية التقليدية وغير التقليدية من أجل تعزيز قوتها الإقليمية العظمى التي لها وزنها السياسي والعسكري سواءاً في منطقة الخليج أم في منطقة بحر قزوين، وتكمن أهمية التعاون العسكري الروسي الإيراني من جهة التأثير في مجريات الصراع الدولي الدائر حالياً على مناطق النفوذ وعلى طريق بلورة التحالفات الدولية في مواجهة الهيمنة الأمريكية، فضلاً عن التأثير في علاقات الصراع والتعاون بالدول القريبة منهما لا سيّما أنها محيطات مشحونة بالنزاعات والصراعات التي تعود جذورُ البعض منها إلى الحرب الباردة.

فتعدُّ روسيا الإتحاديةُ شريكاً استراتيجياً للجمهورية الإسلامية الإيرانية، وداعمةً لبرنامجها النووي السلمي، كما ان روسيا منسجمة استراتيجياً مع التحركات والمواقف الإيرانية في مجريات الملف السوري، وغير قلقة من ازدياد النفوذ السياسي والعسكري الإيراني في العراق.

وتزداد أهميةُ إيران لروسيا الاتحادية وذلك بحكم موقعها الجغرافي القريب، إذ

أصبحت إيرانُ الجارَ الجنوبيَّ الذي تنبغي السيطرةُ عليه لحماية الأمن القومي الروسي، فالموقع الجغرافي المتميّز من الناحية الجيوبوليتكية والإستراتيجية جعل إيران محلَ صراعٍ وإقبال القوى الكبرى لإقامة العلاقات معها وتحسينها.

المحور الأول: أهميَّةُ إيران في الإدراك الإستراتيجيّ الروسيّ

بدأت روسيا الاتحادية بتطوير علاقتها مع إيران خلال مدة التسعينات من القرن العشرين في عهد الرئيس الروسي السابق بوريس يلتسين، فكان توقيع العقد الخاص بإنشاء مفاعل بوشهر النووي لتوليد الطاقة الكهربائية في إيران وقد ترسّخ هذا التوجّهُ في السياسة الروسية في وصول فلاديمير بوتين إلى السلطة مطلع عام 2000 في إطار توجّه القيادة الروسية الجديدة لتوظيف السياسة الروسية الخارجية بصفة عامة لخدمة متطلبات نمو الاقتصاد الروسي وازدهاره، فشهدت السياسةُ الروسيةُ تفعيلاً بعد عَقد من السكون من سبعينات القرن الماضي، وعادت روسيا لتلعبَ دوراً فاعلاً وتتّخذَ مواقفَ واضحةً في العديد من القضايا الدولية والإقليمية، وقد سَاعَدَها في ذلك وجودُ قيادة واعية ذاتِ رؤية للأولويات الوطنية، ولديها القدرةُ على تنفيذها بإدارة كفوءة مما أدّى الى انتعاش اقتصادي مكّنها من تحقيق درجات متزايدة من الاستقلالية في سياستها الخارجية. ويمكنُ القولُ: إن هناك مجموعةً من العوامل التي ساهمت في إحداث التقارب بين البلدين خلال تلك المدة كان من أهمّها[1]:

1 - إمتناع إيران عن التدخل في الشؤون الداخلية لروسيا الاتحادية، ولا سيما خلال تفكّك الاتحاد السوفيتي، واتباعُها نهجًا محافظاً ومنضبطا إزاءَ تطورات الأحداث في الاتحاد السوفيتي السابق في أيامه الأخيرة.

2 - إحجام إيران عن محاولة تصدير ثورتها الإسلامية الى الجمهوريات الإسلامية الجديدة، وذلك لحاجتها الى التكنولوجية الروسية.

3 - حاجة روسيا الى تأمين شريك مُهمّ معها في عمليات استغلال ثروات آسيا الوسطى، والاستفادة من موقع إيران المطلّ على الخليج.

4 - إيجاد تنسيق مشترك للحدّ من نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية سواءاً في منطقة آسيا الوسطى أم في منطقة الخليج[2].

(1) سعد الحمداني، العلاقات الروسية الإيرانية 2001ـ2010، مجلة العصر، مجلد 21، العدد 21، 2012، ص 4.

(2)محمود عليان عليمان، العلاقات الامريكية الروسية في مرحلة اعادة التوازن، مجلة دراسات دولية، مركز الدراسات الدولية، جامعة بغداد، العدد (26)، 2002،

ويُعدُّ التعاونُ الإستراتيجي الروسي-الإيراني نموذجاً واضحاً لهذا التحوّل في السياسة الروسية، إذ يمكن تفهُّمُ التطورِ الحادثِ في العلاقات الروسية الإيرانية على ضوء العائد المباشر للتعاون بينهما، والذي يخدم المصلحة الوطنية لكلا البلدين.

فتتمتع إيران بمكانة خاصة في الساحة الإستراتيجية إذ تمنح المساحة المناسبة لروسيا للحفاظ على استقلالها عن طريق المحيط الأطلسي. وان العلاقة الإيرانية الروسية يمكن ان تتطور الى مستوى التحالف المهم والمؤثر لذا ينبغي عليها الدفاع عن نفسها ضد القوى الإمبريالية في الغرب، وفي الوقت نفسه السماح لروسيا بالانضمام إلى المياه الدافئة التي كانت دائما الهدفَ الرئيسَ لسياستها الخارجية. وقال الفيلسوف والخبير الروسي الشهير «الكسندر غليويج دوغين»، زعيم حركة اوراسيا: «إنَّ التحالفَ بين إيران وروسيا لا غنى عنه من أجل إقامة اوراسيا قوية -مستقلة -آمنة ومستقرة، إذ ان جميعها في طريقها للتحقق. وان العلاقات الإيرانية-الروسية تأتي في الدرجة الاولى وتُجسد نوعا من التقارب لإقامة اوراسيا قوية ومستقلة»[3].

إضافةً الى ذلك، وفي نطاق تعزيز علاقات التعاون بين البلدين، أكّد الجانبُ الروسي اهتمامَه بانضمام إيران الى منظمة شنغهاي للتعاون، خاصة بعد المنحى السلبي الذي تتّخذه العلاقاتُ الإيرانية الامريكية منذ تولي دونالد ترامب للحكم، وتأثير ذلك في مكانة إيران في الشرق الأوسط، وبالإضافة الى توتر العلاقات الامريكية الروسية، نظرا لعلاقات الصداقة بين إيران وروسيا[4].

وتأكيد أهمية إيران في الإدراك السياسي الخارجي لروسيا الاتحادية فقد وعد الرئيس فلايمير بوتين بتطوير اواصر التعاون بين بلاده وإيران، ولا سيما في المجال العسكري والنووي بغية تطوير التقنية النووية الإيرانية.

المحور الثاني:
طبيعة الإدراك الإيرانيّ لروسيا كقوة فاعلة

إن روسيا الطامحة إلى استعادة دورها كدولة عظمى لها مكانتها الدولية وجدت في إيران الدولة الأكثر أهمية من حيث موقعها الإستراتيجي بين أغنى منطقتين بالنفط في العالم وتشرف على مضيق باب المندب وعلى جزء كبير من الخليج من جهة، وعلى حدود جمهوريات آسيا الوسطى والقفقاس من جهة أخرى، فضلا عن إن إيران تُعدُّ سوقاً هامة لتصريف منتجات روسيا العسكرية والتقنية. وإيران التي تسعى إلى دور إقليمي فعال ومؤثر في المنطقة تجد في روسيا الحليف الأنسب لالتقاء عدد من مصالحها المشتركة في المنطقة وللقدرات العسكرية والتقنية التي تملكها روسيا وتحتاجها إيران في الوصول إلى استراتيجيتها المنشودة.

(3) الفيلسوف الروسي دوغين: إيران الحليف الأفضل لروسيا، الوقت التحليلي والاخباري، 2016/9/8، http://alwaght.com/ar/News/108413/%D8%A7%D9%84%8A%D9%84 %D9% 81%D981_%D8%88%D9%D8%B3%D984%D8%B1%D9%%A7%D98A_%D %88%D8%B3%D988%D8%BA %8%AF%D986_%D8% %8A%D9 %%D98A%D8%B1%D8 %A7%D986_%D8%A7%D9%%A7%D9D9%8A%84%%84%D8%AD%D984% %81_%D8%A7%D9 %D981%D8%B6 %D8%A3%D984%D8%B1%84_%D9%%D98A%D8%B3%D9 88%%%D9 %A7 %D8"

(4) العلاقات الروسية الإيرانية البرغماتية، دراسة بحثية الالكترونية، مركز الدراسات السياسية والدبلوماسية المتعلقة في الشرق الأوسط وشؤون إيران السياسية، http://idraksy.net/iran_russia_relation/?print=pdf"

إلى جانب ذلك فإن هناك مصالحَ مشتركةً بين روسيا وإيران للتعاون من أجل منع ازدياد قوة أو نفوذ أية دولة مجاورة لهما، لما لهذه الدولة من امتدادات قومية داخل كل البلدين، كما تلتقي مصالح الدولتين في رفضهما لتوسع حلف شمال الأطلسي شرقاً، إذ تنظر روسيا إلى توسع الناتو بوصفه أداة لغرض الهيمنة الأمريكية على أوربا ومحاصرة روسيا بسلسلة من القواعد العسكرية وذلك للحدّ من مكانة روسيا والتقليل من قوتها العسكرية ومحاولة للسيطرة على مواردها الطبيعية وهو ما دفعها إلى إقامة توازن استراتيجي عالمي عن طريق عقد اتفاقيات او تفاهمات استراتيجية مع قوى دولية أو إقليمية تعارض هيمنة الغرب على النظام الدولي مثل إيران لا سيما ان إيران هي الأخرى تنظر إلى توسع الناتو كأداة لإضعاف الدور الإيراني في صياغة الترتيبات الإقليمية الخاصة في منطقة آسيا الوسطى والقفقاس ومن ثم تهديد أمنها القومي.

وإن علاقات إيران المتطورة مع روسيا الاتحادية ساعدت إيران كثيرا على تخطي العديد من العقبات والعقوبات التي وضعتها وتحاول وضعها الولايات المتحدة الأمريكية أمام إيران من اجل عزلها دوليا. وقد ساهمت روسيا في افشال العديد من المشاريع الأمريكية، كما أمّنت لإيران المخارجَ الدبلوماسية للإفلات من طائلة العقوبات الإقتصادية الشاملة التي سعت الولايات المتحدة إلى فرضها على إيران في مجلس الأمن الدولي، إلى جانب الانفتاح على إيران اقتصاديا وعسكريا وسياسيا.

المحور الثالث:
طبيعة الأداء الإستراتيجي الروسي تُجاه الملف النووي الإيراني

على إثر اشتداد الجدل حول برنامج إيران النووي مع الغرب في كانون الاول من عام 2000، على خلفية نشر صور إلتقطتها الأقمارُ الاصطناعية أظهرت بناءَ منشأتين سريتين للوقود النووي جنوبي طهران[5]، واكتشاف قيام إيران في عام 2003، وبشكل سري باستعمال تقنية دورة الوقود النووي بما فيه التركيز، وإعادة المعالجة من دون ان تصرّح عن هذه الأنشطة الى الوكالة الدولية للطاقة الذرية، ودعوة الولايات المتحدة إحالة ملف إيران النووي الى مجلس الأمن بهدف إتّخاذ إجراءات عقابية ضد طهران[6].

وفي محاولة لنزع فتيل الأزمّة بين إيران، والوكالة الدولية للطاقة الذرية، ومن ورائها الولايات المتحدة، والدول الأوربية كان هناك تحركٌ روسيٌّ منذ تشرين الاول من

(5) شانون ن.كايل، الحد من الأسلحة النووية وخطر الانتشار، في كتاب (التسلح ونزع السلاح والامن الدولي، الكتاب السنوي 2005، ترجمة حسن حسن وعمر الايوبي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص52.

(6) شانون ن.كايل، الحد من الاسلحة النووية وظر الانتشار، في كتاب (التسلح ونزع السلاح والامن الدولي: الكتاب السنوي 2004، ترجمة: حسن حسن، واخرون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004، ص846ـ847.

عام 2005، وطوال عام 2006، إذِ اقترحت روسيا تأسيس مركز ايرانير-وسي مشترك لتخصيب اليورانيوم على الأراضي الزراعية[7]، فضلا عن تعهد روسيا بتوفير ضمانات لتزويد إيران بحاجتها من الوقود النووي اللازم لتشغيل مشاريعها النووية السلمية، وذلك بغية تبديد الشكوك الغربية بشأن إمكانية استخدام إيران الوقود النووي الناجم عن عملية تخصيب اليورانيوم داخل مفاعلاتها في انتاج السلاح النووي سراً من جهة، والحيلولة دون حرمان إيران من المقاصد التقنية المَدَنيَّة لعمليات التخصيب من جهة اخرى، ومن ثم تجميد فكره إحالة الملف النووي الإيراني الى مجلس الامن[8]. وتكمن وراء المساندة الروسية لإيران حسابات متعددة أبرزها[9]:

(7) أحمد ذياب، روسيا اللعبة الكبرى في آسيا، مجلة السياسة الدولية، مركز الاهرام للدراسات الاستراتيجية والسياسية، القاهرة، العدد 167، يناير 2007، ص123.

(8) التقرير الاستراتيجي العربي 2005ـ2006، مركز الاهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، 2006، ص2.

(9) عبد الحسين شبيب، الخيارات الامريكية في مواجهة البرنامج النووي الايرانية، فصيليه إيران والعرب، العدد الرابع عشر، خريف 2005، ص58ـ59.

1 - ان روسيا هي المزوّد الاول لإيران بالتكنولوجية النووية.

2 - إصرار روسيا على عدم التخلي عن مصدر مالي مُهمّ وفَّرَ لها مليارات الدولارات بسبب بنائها مفاعلاً نوويا لإيران في(بوشهر) وتقديمها تقنيات عدّة في هذا المجال.

3 - إدراك روسيا الى ما يمكن ان يترتب عليها من خسائر اقتصادية مضاعفة جراءَ فسخها عقوداً ملزمة مع إيران.

وتأكيد مواصلة التعاون النووي بين البلدين قام كبير مفاوضي الملف النووي الإيراني (حسن روحاني) بزيارة الى روسيا في عام 2005، إلتقى فيها الرئيس الروسي (فلاديمير بوتين)، وصرح (بوتين) في أثناء الزيارة: (ان البرنامج النووي الإيراني يقتصر على الأغراض السلمية)، كما أعلن (بوتين) بأن روسيا وإيران على وشك التوقيع على اتفاقية تتعهد روسيا بموجبها بتزويد مفاعل (بوشهر) بالوقود النووي، وإرسال الوقود المستهلك من المفاعل الى روسيا لإعادة معالجته، وفي العام نفسه وقعت روسيا وإيران رسميا على صفقة الوقود النووي[10]. ومن الناحية الواقعية، فإن روسيا تنظر الى دعمها لإيران من منظور جيوستراتيجي أكثر من أي شيء آخر.

(10) سكوت ريتر، استهداف ايران، ترجمة امين الايوبي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الاولى، 2006، ص232.

ويمكن القول: إن التعاون التسليحي مع إيران في المجالين التقليدين والنووي ارتبط بمجموعة من الدوافع الروسية يمكن إجمالها على النحو الآتي:

1 - الدافع الاقتصادي: وهو الأكثر أهميةً في تبرير إصرار روسيا على التعاون مع إيران، اذ حاجتها الشديدة للعملات الصعبة، وزيادة وارداتها منها، ويحظى التعاون الروسي-الايراني في المجالين التقليدي والنووي بأهمية اقتصادية بالغة لدى روسيا، فقد تجاوزت قيمة التعاون النووي بين البلدين مليار

الدولار، وأنقذ بدوره آلاف العمال الروس، و(300) مصنع من المصانع الروسية في (سان بطرسبورغ) من البطالة والتوقف. كما ان مشتريات إيران من الأسلحة النووية شكلت عاملاً مُهماً للنهوض بالاقتصاد الروسي[11].

2 - الضغوط التي يمارسها اللوبي العسكري الصناعي في (موسكو) على الحكومة الروسية، لكي يستفيد من فرصة دخول السوق العسكرية الإيرانية التي تشكل اهمية بالغة لصناعة السلاح الروسية، والتي هي في اشد الحاجة الى الأموال بسبب تراجع عوائد الصادرات الروسية من الأسلحة بعد انتهاء الحرب الباردة، وتفكك الإتحاد السوفيتي.

3 - الإستفادة الروسية القصوى من الحظر الأمريكي على طهران لتعزيز تعاملها التجاري مع إيران، وتوظيف قدراتها، وانتاجها، وخطوط مواصلاتها البرية، والجوية، والبحرية عبر بحر قزوين، وما يعنيه ذلك من إنعاش للصادرات الروسية[12].

4 - الإدراك الروسي لأهمية العلاقة الطردية ما بين إقامة علاقة وثيقة مع إيران، والحفاظ على مصالحها في منطقة آسيا الوسطى، ومن ذلك فإن التوجهات الإيرانية في آسيا الوسطى كانت موضع ترحيب موسكو التي سعت للحد من الطموحات التركية واحتوائها، ونتيجة لذلك نجد ان سلوك طهران كان منسقا بشكل جيد مع موسكو واحتوائها، الذي انعكس على صلات إيران بالجماعات الإسلامية في هذه المناطق اذ حاولت إيران ان لا تعزل موسكو او تزعجها وهو ما عزّز قوة العلاقات بين البلدين[13].

5 - توسيع رقعة النفوذ الروسي في منطقة الخليج، فإيران بموقعها الحيوي كانت وما تزال تمثل نافذة روسيا، والمفتاح الرئيس لوصولها الى المياه الدافئة ومنابع النفط في الخليج العرب.

6 - رفض روسيا ان تعامل بمعيار اقل من معيار تعامل أمريكا مع أطراف اخرى، ففي الوقت الذي تمدُّ فيه الولاياتُ المتحدة كوريا الجنوبية بمفاعلات تعمل بالماء الخفيف، تطالب واشنطن روسيا بان تمتنع عن بيع نفس المفاعلات لإيران[14].

اما فيما يتعلق بالدوافع الإيرانية لتعاونها التسليحي مع روسيا في المجالين التقليدي والنووي، فيمكن إجمالها على النحو الآتي:

(11) عاطف معتمد عبد الحميد، روسيا وإيران-التفاعل النووي في المساحة الرمادية، شؤون ايرانية، مركز الدراسات الايرانية، جامعة البصرة، العدد (11)، تشرين الثاني 2005، ص15.

(12) نيفين عبد المنعم مسعد، السياسات الخارجية العربية تجاه إيران – ملف تطوير العلاقات العربية الإيرانية، مجلة المستقبل العربي، العدد (279)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002، ص103.

(13) محمود سريع القلم ومصطفى كيار اوغلو، تاثير الحد الشمالي على منطقة الشرق الاوسط، ترجمات استراتيجية، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، سوريا، العدد (6)، 1996، ص18.

(14) احمد ابراهيم محمود، التعاون النووي بين روسيا وإيران، مجلة مختارات إيرانية، مركز الاهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، العدد 8، مارس 2010، ص4.

1 - ان تنشيط علاقات التعاون العسكري مع روسيا يُعدَّ واحداً من بدائل قليلة للغاية متاحة قبالة السياسة الإيرانية لاسيما فيما تتعرض له إيران من حملة دولية شرسة تقودها الولايات المتحدة بهدف عزل إيران، ومنعهم التعاملَ معها من القوى المؤثرة كافة في المجتمع الدولي، والتي حققت نجاحا كبيرا على الصعيد العسكري، اذ امتنع معظمُ الدول المالكة للتكنولوجيات العسكرية المتقدمة عن توقيع صفقات تسليحية مع إيران، ومن ثم، فإن روسيا الاتحادية تمثّل القوى الرئيسة التي يمكن لإيران الحصولُ منها على الحاجات التسليحية[15].

2 - محاولة إيران تعزيز إمكاناتها العسكرية، وتعويض ما دمرته حرب ثماني السنوات لاسيما في ضوء غياب القدرة الإيرانية على تحديث سلاحها بسبب الحظر الأمريكي المفروض عليها منذ نهاية عهد الشاه.

3 - التخوف الإيراني من الوجود العسكري الأمريكي القريب من اراضيها في الخليج والعراق، والذي زاد من اندفاعها الى تطوير قدراتها العسكرية بما يتلاءم وحجم التهديد الأمريكي، وهذا ما اكده الرئيس (محمد خاتمي) في آب/1998، اذ قال: (ان الوضع الاستراتيجي لجمهورية إيران الإسلامية في العالم وفي منطقة الشرق الأوسط على وجه الخصوص يتطلّبُ ان تكون لنا إمكاناتٌ عسكريةٌ قويَّةٌ، ولن نطلبَ الأذن من أي جهة في سبيل تقوية دفاعاتنا العسكرية فحماية النفس ومنع الآخرين من ارتكاب العدوان هما من إهمِّ حقوق كل بلد) ومن الطبيعي ان تتوجّه ايران الى روسيا الاتحادية لخبرتها العسكرية وكونها تشاطر إيران رفضها للهيمنة الامريكية[16].

(15) عبد الخالق عبد الله، الخليج العربي في القرن الجديد، التقرير الاستراتيجي الخليجي، (1999ـ2000)، مؤسسة دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، الامارات، 2000، ص44.

(16) كوري ان شيك، جوديت اس.يافي، المضامين الاستراتيجية للتسلح النووي الايراني، ترجمة ابراهيم عبد الرزاق، بيت الحكمة، بغداد، 2001، ص7.

المحور الرابع:
الدورُ الإيرانيّ بعدَ التدخُلِ العسكريّ الروسيّ في سوريا

إن الجغرافية هي العنصر الثابت في التاريخ وهي العامل الحاسم في التقارب بين الأمم والشعوب، فإن المعطى الجغرافي يلعب بالنسبة للجمهورية الإسلامية الإيرانية أهمية خاصة في استراتيجية السياسة الخارجية الروسية في منطقة الشرق الأوسط، كونها الدولة التي تعطي سياسة روسيا الاتحادية في هذه المنطقة بُعدا وعمقا استراتيجيا لأمور جيوسياسية وجيواقتصادية عديدة. فإن الواقع السياسي الراهن يظهر بتطابق نسبي للموقف الروسي مع نظيره الإيراني، إذ يدعم الطرفان النظام الحاكم في دمشق في حربه ضد الإرهاب وضد المعارضة المسلحة على

اختلاف أطيافها، وعلى الرغم ما يمكن عدّه تطابقاً نسبياً في الرؤية، فان الوضع السوري بات يمثل أبرز ساحات التفاعل الروسي الإيراني في الساحة الدولية عامة، وهذا التفاعل يعكس نفسه على إجمالي المقاربة الدولية للازمة السورية. وان روسيا عززت بتدخلها العسكري موقف الحكومة السورية وفرضت تغييرات كبرى أثبتت من خلالها قدرتها على لعب أدوار أكبر في ملفات منطقة الشرق الأوسط، وأثبتت بأنها أكثر قدرة من الجمهورية الإسلامية الإيرانية على ربط سورية بها، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا. يشكل التدخل العسكري الروسي ضمانة اقوى بالنسبة لبقاء الحكومة السورية، الامر الذي يزيد من النفوذ الروسي في سوريا، الامر الذي يتيح تالياً الهيمنة المستقبلية على خطوط نقل الطاقة، التي يتوقع ان تمر عبر سورية وانعكاس ذلك على سياستهم. بالنسبة للإيرانيين التدخل الروسي المباشر شكّل مدخلا لتدويل الازمة السورية ما يعني اضعاف الدور الإيراني وتعزيز الدور الروسي كلاعب الدولي. يدرك صانعو القرار في طهران بأن سورية بعد التدخل العسكري الروسي تختلف عما قبله، لكن الدعم والرضا الإيراني على هذا التدخل، لا يعني ان موسكو لن تواجه رفضاً إيرانياً للخضوع لسياستها. وإذا كانت موسكو هي الضامن الدولي لأي تسوية سياسية مستقبلية لسورية، فان طهران هي الضامن الإقليمي لها. وان الإيرانيين يدركون ان بلادهم لاعب إقليمي أساس لا يمكن تجاوزه ولديه أوراق قوة كثيرة تمكّنه من فرض معادلات صعبة في سورية[17].

(17) وسيم خليل قلعجيه، روسيا الاوراسية زمن الرئيس فلاديمير بوتين، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2016، ص356.

بالرغم من تشابك المصالح بين الدولتين، إلا أن هناك جواً من الحذر في التعامل فيما بينهما، فإيران من مصلحتها المزيد من الانخراط الروسي في المعارك في سوريا، بينما تحرص روسيا على الاكتفاء بالضربات الجوية وعمليات القوات الخاصة. لكنَّ مستوى مقبولاً من التناغم قائمٌ بينهما فيما يتعلق بالأزمة السورية وفيما يتعلق بمواجهة السياسة الأمريكية[18].

(18) آفاق الدور الروسي في منطقة الشرق الأوسط، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 1 ديسمبر 2016، تقرير الالكتروني.

فان موقف موسكو في تسوية الازمة السورية ينطلق من عدد من المحددات التي تصبُّ أساسا في خدمة المصالح الروسية وأمنها القومي. التطابق النسبي بين موقف موسكو وموقف طهران بشأن الملفات الإقليمية المطروحة وان اختلفت مصالحهما من وراء ذلك. مثلاً الإيرانيون لديهم قلق من الحرص الروسي على امن دولة إسرائيل في الوقت الذي تعمل به طهران على حماية ودعم سوريا لاستعادة خطوط التماس مع الإسرائيليين، والتأسيس لبنية تحتية عسكرية فاعلة في الجولان[19].

(19) وسيم خليل قلعجية، المصدر السابق، ص359.

أما حكومة تل أبيب فتعمل مع بعض الدول العربية على تنسيق مواقفهما لإبعاد

روسيا عن إيران، وذلك بالتزامن مع الحديث في واشنطن عن إمكانية إبرام صفقة مع موسكو تتضمن رفع العقوبات عن روسيا وإصلاح العلاقات الأمريكية-الروسية مقابل ابتعادها عن إيران، ورأى محللون أمريكيون أن إدارة ترامب تركز بصورة أساسية على محاولة الوقيعة بين روسيا وإيران، والتوصل معهم إلى حل نهائي يشمل القضاء على تنظيم الدولة وتمكين أكراد سوريا. وتنطلق هذه السياسة من أن المشكلة الكبرى التي ستواجه بوتين تتمثل في التكلفة الباهظة للعمليات الروسية والتي ناهزت 3 مليارات دولار منذ عام 2015، وبناءاً على ذلك ترى إدارة ترامب أنه يمكن إشراك دول الخليج العربية في تمويل ترتيبات الصفقة السورية بشرط خروج بشار الأسد، والتي يمكن أن يكون لروسيا النصيب الأكبر من تعاقدات تمويلها خليجياً، إذ يعتقد بوتين أن عملية إعادة إعمار سوريا بعد التوصل إلى الاتفاق النهائي، خاصة أن الإعمار سيكون بمثابة منجم ذهب بالنسبة للاقتصاد الروسي[20].

(20) تنامي الخلاف الروسي-الإيراني في سوريا، المرصد الاستراتيجي، 2018، https://strategy_watch.com/news"

المحور الخامس:
مستقبلُ مكانةِ إيران في الإستراتيجيَّة الروسيَّة

مما لا شكَّ فيه أن طهران استفادت من علاقات الشراكة الاستراتيجية مع روسيا الاتحادية عبر عملية استقواء محدودة، كان سببه الأكبر غياب الفاعلية والحضور العربيين في عدة مواقع، منها العراق وسورية ولبنان، دون ان يكون هذا الاستقواء الإيراني شاملا، إذْ كثيرا ما توتّرت العلاقات الإيرانية مع روسيا الاتحادية حول الملفات المشتركة بينهما، ومنها قضية صفقة منظومة الدفاع الجوي المتطورة «اس300-» لطهران، او في قضايا التعاون العسكري المشترك كقضية نشر الطائرات الحربية الروسية في الأراضي الإيرانية، لكن في المقابل، استطاعت روسيا الاتحادية ان تجد لها في التعاون العسكري الروسي-الإيراني- السوري، بيئة حاضنة لإعادة تنشيط سياستها الخارجية على مستوى النظام الدولي، وفي تحجيم النفوذ الأمريكي خاصة في الشرق الأوسط عبر هذا التعاون العسكري، وهذا ما أوجد بعض مجالات المناورة الاستراتيجية[21].

(21) وسيم خليل قلعجية، المصدر السابق، ص360.

رغم الإطار العام للعلاقات الروسية الإيرانية الذي يكتسي بطابع التقارب والتحالف الاستراتيجي، الا انه يسجل عدم وجود استراتيجية روسية عملية واضحة تجاه الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وفي المقابل تتعامل موسكو مع جارتها الجنوبية وفقا لكل حالة على حدة. وبالرغم من افتقار موسكو لخطة عمل موحدة او

تصور واضح للأولويات العليا تجاه طهران، فانه يسجل على طهران اضطرارها الى الاعتماد على روسيا الاتحادية في القضايا الإقليمية ابتداءاً من ملفات سورية والعراق وليس انتهاءاً في قضايا بحر قزوين وآسيا الوسطى والتي تشكل مجالا حيويا استراتيجيا لكلا الطرفين، مع أولوية روسية فيها[22].

(22) وسيم خليل قلعجية، المصدر السابق، ص361.

فإن مستقبل العلاقات الروسية الإيرانية سيبقى خاضعاً لمنظومة واسعة من الحسابات المركبة والمعقدة. وكحال اية دولة عظمى، فإن حسابات روسيا الاتحادية الجيوسياسية بعيدة المدى ليست هي ذاتها خياراتها المتغيرة او اوراقها التفاوضية في اللعبة الدولية المفتوحة بطبعها. خصوصا ان الوضع الراهن للعلاقات الروسية الإيرانية يرتكز على مصالح جيوسياسية تعمل في ظل بيئة دولية يفوق المحتوى المتغير فيها محتواها الثابت، وهذا من سنن العلاقات الدولية.

الخاتِمــة

لم تقتصر علاقات روسيا في منطقة الشرق الأوسط على إيران، بل امتدت الى الدول العربية الأخرى وإسرائيل وهذا يعني أن التعاون مع إيران هو جزء من مصلحة اقتصادية بحتة لروسيا تقوم على أساس حسابات الربح والخسارة، وليس كما كان يجري خلال الحرب الباردة حينما كان الدافع الأيدلوجيا يتغلب على المنطق الاقتصادي، وهذا يعني أيضا ان روسيا تبيع السلاح لإيران ولأعداء إيران ومنافسيها، وان القاعدة التي تتحكم بمبيعات السلاح الروسي هي (البيع لمن يدفع) وهو ما تنعدم معه أي إمكانية للحديث عن علاقات استراتيجية بين البلدين.

إن المواقف الروسية الموالية لسياسة إيران لا تنبع من اعتبارات أخلاقية او موضوعية قدر انطلاقها من اعتبارات مصلحية وحسابات اقتصادية واستراتيجية، فهي تسمح لروسيا بتعزيز نفوذها داخل مجلس الأمن، كما ان النجاح في الحيلولة دون فرض عقوبات اقتصادية اشد على إيران سيتيح لروسيا مواصلة توسيع العلاقات التجارية مع إيران، فضلا عن محاولة روسيا ان تبعث من خلال مواقفها تلك برسائل لأنظمة الحكم الأخرى في المنطقة بان الصداقة مع روسيا تطرح ثمارا جيوسياسية، إلا أن هذه المواقف الروسية الداعمة لإيران لا يمكن التعويل عليها على طول الخط طالما حَكَمَتْها حساباتُ ومصالحُ روسيا الاتحادية التي تجعلها حريصة على التصرف بما يخدم هذه المصالح.

من المرجَّح أن يستمر التعاون الروسي الإيراني على المدى القريب وذلك بسبب استمرار الحظر الامريكي والغربي على مبيعات السلاح لإيران من جهة وحاجة

روسيا الى إنعاش وضعها الاقتصادي ورغبتها في استثمار ورقة التعاون العسكري مع إيران للحصول على مكاسب من الولايات المتحدة وأوربا من جهة أخرى.

إن التعاون العسكري الروسي الإيراني لن يفضي إلى امتلاك إيران للسلاح النووي اذ انه ليس من مصلحة روسيا إيجاد دولة نووية على حدودها الجنوبية فضلا عن التزام روسيا أمام المجتمع الدولي بالعمل على منع الانتشار النووي فضلاً عن أن تحوّل إيران إلى دولة نووية بمساعدة روسيا يمكن أن تترتب عليه عواقبُ وخيمةٌ على روسيا ليس أقلَّها فرضُ حصارٍ اقتصاديٍّ أمريكيٍّ أوربيٍّ عليها.